شفاء الصدور

أيها القارئ الكريم:

إن النفس الإنسانيةَ راغبة طالبة. لا تقف بها الرغبة عند حدٍّ، ولا يهدأ الطلب وإن عجزت. فما أكثر ما تحوي صدورُ الناس من حاجات، وما يدور في نفوسهم من رغبات وتطلعات. والصدورُ ينالها من المرض - والحالةُ هذه - ما تحتاج معه إلى شفاء، ويغشاها من ظلمات الهوى ما لا تخرج منه إلا بنور وضياء.

وشفاء الصدور فيما أنزل الله على نبيه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [1].

وحياتها ونورها فيه ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [2]، ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [3]

نعم: تختلج في الصدور أمور وأمور، وتَزْحَمُهَا رغباتٌ وتطلعات. والأمل يولد صغيراً ثم يكبر. والأجل يكون كبيراً ثم يصغر. قد لا يبقى من الأجل المحدود إلا

---

(١) يونس : من الآية ٥٧.

(٢) الشورى : ٥٢، ٥٣.

(٣) الأنعام : ١٢٢.

سويعات، والأمل هناك يهيم بالإنسان فيما يشتهي ويرغب.

وليس من الميسور أن يخضع الأمل للأجل. ولكن من الميسور أن ينضبط الأمل بضابط الشرع. حتى لا يحومَ الإنسان حول المُشْتَبهات أو يقعَ في المحرمات.

❁❁❁

كم في صدور الناس من جهل وشك وشرك ونفاق، كم فيها من غل وغش، وجشع وطمع. كم وكم مِمَّا لا يعلم سِرَّه إلا العليم الخبير. الذي يعلم ما تبديه النفوس وما تخفيه، ويستوي عنده السر والعلن ﴿ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ ﴾ (١)

وما في الصدور لا يتم شفاؤه إلا منه، وما في النفوس من ظلم أو ظلام لا ينقشع إلا بنوره ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ (٢)

والمرض تختلف درجاته، وتتفاوت أنواعه، ويتباين الناس في أمره.

والقرآن الكريم قد جعله الله شفاءً لما في الصدور مهما تفاوت المرض واختلفت درجاته.

إن الكفر هو أخطرُ الأمراض وأشدها فتكاً بالإنسانية، والله – **جَلَّ وَعَلاَ** – يطالب الناس بالإيمان وهو غني عنهم، ولا يرضى لعباده الكفر. وكلُّ نفس تحمل يوم القيامة وزرها، وتُسأل عن عملها، والله – **جَلَّ وَعَلاَ** – قد بين لعباده ما يرضاه لهم وما لا يرضاه؛ رحمةً بهم.

---

(١) الملك : ١٣.

(٢) النور : من الآية ٤٠.

وعندما تقرأ الآية الكريمة من كتاب الله ﷻ تراها وقد لامست القلوب فلم تترك مجالاً للإنسان أن يبدىَ من الأمر ما يضمرُ خلافَه؛ فإن الصدور إذا انطوت عن الناس فإن الله يعلم السرَّ وأخفى ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ ﴾ [1] فليس أمام الإنسان إلاَّ الإخلاصُ، والإخلاصُ فحسب ﴿ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ ﴾ [2]

إن القرآن الكريم يُقدِّم للإنسان زاد المعرفة الصادقة، ومن هذه المعرفة لله ﷻ يتحدد سلوكُ الإنسان. ويستقيم سعيُه فلا يُرى مع الضرَّ ضارعاً، ومع النعمة ناسياً وتاركاً يتخذ من دون الله أنداداً ليضل عن سبيل الله.

هذا الوباء النفسي الخطير لا يُحسم إلا بالمعرفة الصادقة لله والإخلاص له. ويمكنك أن تتدبر كتاب ربك، لتعرف علل النفوس وعلاجَها، وتدرك أن علاج النفس لا يتم إلاَّ من داخلها حيث تنطوي الصدور على ما فيها، وتنبعث النفس بدافع منها. ولا يعلم ما في الصدور ويطلع على ما يدور فيها إلاَّ مَنْ خلقها ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [3]

فلن يكون علاجُها إلاَّ منه.

---

(١) ق : ١٦.

(٢) الزمر : ٧.

(٣) الملك : ١٤.

والذين ينشدون علاجاً للنفوس بعيداً عما حدده الله – جَلَّ وَعَلاَ – إنما يلهثون وراء سراب خادع، كلما ظنو الاقتراب منه ازداد بُعداً، وانتهى كل مخدوع بغير ما أنزل انتهى في النهاية إلى الحق ووجد حسابه وجزاءه.

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ۝٣٩ ﴾ (١)

إن ما في الصدور يتحدد به سلوكُ الإنسان، ولا شفاءَ للصدور – التي تبعث بها الأهواء ويسيطر عليها الجهل والغفلة – لا شفاء لها إلا بما أنزل الله، وهو أعلم بما يصلحها ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ (٢)

والذين يعلمون الحق ويعملون به تستقيم نظرتهم إلى الحياة، ويعتدل سلوكهم وهم يمشون على بصيرة، فيُخدعون بغدهم، والغدُ أمام أعينهم يُعدُّون أنفسهم له، ويقومون سلوكهم به.

أما الذين لا تنشرح صدورهم للحق فتراهم في أمرٍ مريج. لا ثبات لهم ولا استقرار، تذهب بهم المنفعة في كل واد، وهم من أجلها ضارعون وقت الشدة غافلون عند الرخاء. يُسيطر عليهم الهوى وتغمرهم نشوة المتاع ﴿ ۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعۡمَةٗ مِّنۡهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدۡعُوٓاْ إِلَيۡهِ

(١) النور : ٣٩.

(٢) يونس : من الآية ٥٧.

مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ ﴾ (١)

هل يستوي الذين يعلمون توحيده وأمْره ونهيه، والذين لا يعلمون.

الذين يعلمون هم العاملون بعلمهم. إذ عبَّر عنهم أوَّلاً بالقانت، ثم نفى المساواة بينه وبين غيره؛ ليكون تأكيداً له وتصريحاً بأنَّ غيرَ العامل لَيْس بعالم.

إن العلم هو الذي يرسخ في القلب ولا يمكنُ أن يخالفَه صاحبُه، بل ترى سلوكَه يمضي بداعٍ منه، والقلب إذا صَلَح بالمعرفة الصادقة لله وحده صلحت الجوارح واستقام أمرُها « **أَلا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلا وَهِيَ الْقَلْبُ** » (٢)

أخي المسلم:

بهذا الوحي الرباني تطهر القلوب ويستقيم السلوك. إن شفاء الصدور من كل داء لن يكونَ إلا بما أنزل الله. وعليك أن تتابع - في مجال التجربة العملية - سلوك الناس، وترى في واقعهم العبرة والعظة.

إذا تأملت ما كان عليه الناس في جاهليتهم، وقارنت بينه وبين ما صاروا إليه بعد إسلامهم رأيت عجباً.

---

(١) الزمر : ٨، ٩.

(٢) متفق عليه.

كان أهل الجاهلية يتخبطون في ظلام الشرك وظلماته، فما أن استجابوا لنداء الله حتى انبعثت فيهم الحياة، فرأت الدنيا ناساً فيهم عافية الإيمان وقوةُ اليقين، رافعي الرءوس أعزاء النفوس، لا تُذِلُّهم شهوة ولا تأسرهم منفعة، ينشدون الدنيا كلّها عَدْلاً وبرّاً وسلاماً ورحمةً، بعد أن كانت تأسرهم عصبيَّاتُ الجاهلية وتفاخرُها بالآباء.

سلمت الصدور من علل الشرك بدواء الإيمان، فصحَّت النفوس وسلمت القلوب وتحررت الإرادة فلم تؤسر بقيد من زهرة الحياة ومتاعها، فحققت أعظم حضارة إنسانية عرفها الإنسان وشهدها التاريخ.

نعم، تحررت الإرادة من قيود الهوى ومضت في الكون - متسقة معه - تسبح بحمد الله - فتحول الكون كلُّه إلى محراب للمؤمن يَعْبُدُ فيه ربَّه. بعد أن تخلص من قيود الذل والخضوع أمام حجر أو شجر أو بشر. ورأت الدنيا ناساً مجاهدين في سبيل المؤمنين يرفعون رايةَ الحق ويَحْرسون ميزان العدل، ويطاردون لصوص البغي، حتى أمن الناس على أنفسهم ومقدساتهم.

مَكّنَ الله لهم في الأرض فشكروا وأقاموا الصلاة ﴿ أَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾ [1]

قلتُ: يمكنك أن تقارن بين ما كان عليه الناس في جاهليتهم وبين ما صاروا إليه بعد إسلامهم؛ لتدرك ما يحققه هذا القرآنُ العظيم من شفاء لما في الصدور. وإذا سلمت صدور الناس وصحت نفوسهم رأيت الأثر واضحاً في الأعمال والسلوك.

إن رأيتهم يؤثرون رضا الله على كل شئ، فاعلم أن صدورهم قد سلمت.

---

(١) الحج : من الآية ٤١.

إن رأيتهم يذكرون ربهم ولا ينسون غدهم فاعلم أنها القلوب قد آمنت فخضعت لها الجوارح.

إن رأيتهم وزهرةُ الحياة في أيديهم لا تفتنهم، فاعلم أن القلوب غنية بما هو أبقى وأدوم.

أما إذا رأيت الناس وقد أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات.

إذا رأيتهم والشحُّ يأسر نفوسَهم والغفلةُ تسيطر على حياتهم.

إذا رأيتهم ولا شاغل لهم إلا ما يحصلونه من دنياهم، فاعلم أن القلوب مريضة.

وأن الصدور يَصرعَها حبُّ الدنيا وكراهيةُ الموت.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾[1]

✿✿✿

(١) يونس: ٥٧، ٥٨.